التواصل هو التفاوض

دومينيك وولتون

تعريب:
د. رفيق أوباشير
باحث في اللسانيات والتواصل
د. سعيد الاشعري
باحث في التراث الثقافي والتواصل
المغرب

تقديم:

هذه المقالة المعربة الموسومة بـ "**التواصل هو التفاوض**"[1]، هي الخاتمة العامة للكتاب الذي يحمل عنوان (التواصل والإنسان والسياسة) لصاحبه دومينيك وولتون[2]، عالم الاجتماع الفرنسي، ومدير المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا (CNRS)، المتخصص في مجال وسائل الإعلام والاتصال السياسي، والعلاقات بين العلوم والتقنيات والمجتمع ومؤسس ورئيس تحرير المجلة الدولية "Hermès" سنة 1988، الذي ألف أكثر من ثلاثين كتابًا تُرجمت إلى أكثر من عشرين لغة، من بينها "إشادة بالجمهور الكبير" 1990، "التفكير في التواصل" 1997، "الإنترنت وما بعده؟" 1999، "التواصل، الإنسان، والسياسة" 2015، " الإعلام ليس تواصلا" 2021، و"التفكير في عدم التواصل" 2023.

النص المترجم:

إن قطيعة القرن الواحد والعشرين هي بلا شك ظهور هذا المعنى الثالث للتواصل: التفاوض. ويأتي هذا المعنى بعد الإرسال والتقاسم ويتعلق بالقضية المركزية المتمثلة في التعايش السلمي في عالم أصبح صغيراً وشفافا أضحت فيه الاختلافات أكثر ظهورا من التشابهات بفضل التقنيات. وتهدف هذه القضية أيضا إلى تجنيب التواصل – الذي كان يقرب الأفراد بالأمس – أن يصبح مسرعا لسوء الفهم والعداء والمسافة بين المجتمعات التي أصبحت الاختلافات بينها أكثر بروزا اليوم.

لقد أصبح التعايش مفهوما مركزيا في القرن الواحد والعشرين إذ انتقلنا من اليقين الظاهر للمعلومة في القرن العشرين إلى عدم يقين التواصل في القرن الواحد والعشرين.

فعالم اليوم، المتعدد الأقطاب، أكثر تعقيدا وخطورة من عالم الأمس، حيث انضافت التوترات الثقافية إلى الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. هذه هي إذن قضية بداية هذا القرن. فإذا ربطنا القرن التاسع عشر بالسياسة والديمقراطية والقرن العشرين بالجانب الاقتصادي والاجتماعي وتقليص التفاوتات، فإن القرن الواحد والعشرين، في بدايته على الأقل، هو عصر التواصل أي التفاوض والتعايش.

يمكن أن يصبح ثالوث الهوية والثقافة والتواصل ثالوثا جهنميا للقرن الواحد والعشرين، كما يمكن أن يصبح احترام الغيرية وبناء التعايش مفتاحي السلم والحرب، لذا، فالإغراء التقني لا يكفي لكبح تناقضات من نوع جديد، فإذا كانت النزاعات الثقافية دائما موجودة فإن العولمة التقنية سرعت بروزها.

وبالعكس من ذلك، فلتقنيات التواصل دور إيجابي جدا لم يثمن بالقدر الكافي منذ نصف قرن ويتجلى في إخماد انفتاح العالم على ذاته. فهي التي أمنت هذا الانفتاح وخففت أيضا من الاضطراب الذي أحدثه هذا الانفتاح على مستوى الأفراد والشعوب الذين أصبح بإمكانهم مشاهدة العالم داخل بيوتهم. لقد لعبت هذه التقنيات دور الوسيط، فبجعلها العالم ينفتح على نفسه عملت على خلخلة التمثلات لكنها قامت في نفس الوقت بالتحسيس بهذا الواقع الجديد، واقع عالم مفتوح بتشابهاته واختلافاته. فبالتركيز على كفاءة التقنيات يحاول الناس مسك الروابط والتحكم من أجل إخماد الصدام مع الغير بكل بساطة. لتقنيات التواصل "القديمة" و "الحديثة" دور متناقض: إنها تجعل الاختلافات بين الثقافات والحضارات أكثر بروزا وعليه أكثر صراعا وفي نفس الوقت تجعل العالم التي ساهمت في فتحه مفهوما.

لكن، تحولت هذه الثورة التقنية تدريجيا إلى إخفاء صعوبة التواصل. لذلك وجب الخروج على عجل من أسطورة "الفرد الحر متعدد الربط والفضولي والمستحضر للآخر طبيعيا والذي يعيش في مجتمع على الخط ومحكوم بعلاقات سلمية". إذن، النتيجة مختلفة تماما وذلك لعنف العالم وتعقيد ولاعقلانية التواصل الإنساني والاجتماعي. دون أن ننسى قدرة صناعات " الكوم" لكون الفرق بين التفاعل والتواصل في تزايد.

فكلما حدث تفاعل وتفاعلية حتى مع الأشياء الذكية والكشف عن طريق موجات الراديو وتكنولوجيا النانو كلما فهمنا، متأسفين، أن التفاهم في وضع حرج. وكلما كانت التفاعلات كثيرة ومثمرة كلما كان ضروريا أن نميز بينهما وبين محاسن ونقائص التواصل الإنساني. يراعى الأمر نفسه بالنسبة للتقنيات، فكلما زادت كفاءتها كلما أصبح ضروريا البحث عما يفصلها عن التواصل.

لا يكمن المشكل في تراتبية التقنيات بين وسائط " قديمة" أو "حديثة" بقدر ما يجب فهم أن الوسائط والإنترنت يدبر كل منهما بطريقته الخاصة البعدين المعياري والوظيفي المتعلقين بالإعلام والتواصل. هذان البعدان هما اللذان يتكلفان بأهم ما في الأمر: العلاقات الإنسانية والاجتماعية.

إن الوسائط، وعلى الرغم من قلة كفاءتها التقنية من الأنترنت فهي أنجع لمعالجة مسألة الغيرية. وبالمقابل من ذلك، فالأنترنت أكثر فعالية لضمان التواصل الطائفي إذ تسهل التشابهات الثقافية التواصل المعياري. وعلى النقيض من ذلك، فلا تلائم التقنيات الحديثة التواصل غير المتجانس الذي يطبع العالم المفتوح. فمن جهة يوجد تواصل تهيمن عليه الغيرية ومن جهة أخرى تستحوذ عليه طائفة ذات قيم خاصة. مرة أخرى، لا تعد الكفاءة التقنية أهم شيء، بل القصدية التي يدبر من خلالها البعدان الأبديان للتواصل: البعد المعياري والبعد الوظيفي. وللتذكير فهذان البعدان لا يقابلان بين الإنسان والتقنية لأن هناك وضعيات عديدة يكون فيها التواصل المعياري من جانب التقنيات والتواصل الوظيفي من جانب الإنسان.

أين يكمن تحدي التواصل؟ في الآخر والغيرية. نبحث عن الذات فإذا بنا نتفاوض مع الآخر ولذلك نفهم سبب تأجيل الكفاءة التقنية مواجهة هذه المسألة ليبقى السؤال مطروحا: متى تستدرك سرعة إرسال المعلومة والشفافية المزعومة للعلاقات الإنسانية والتفاعلية المعممة والاستمرارية الظاهرية بين الإعلام والتواصل والولوج السهل والدائم للمعلومة، متى يستدرك كل ذلك بطء التواصل الإنساني ووزن المسكوت عنه وعدم استمرارية العلاقات وبطء القرارات والأفعال ولاعقلانية العلاقات الإنسانية والاجتماعية؟

توجد صعوبات التواصل منذ الأزل لكن الذي استجد تماما هو النموذج الثقافي الذي يجعل من التواصل واجبا "طبيعيا". لذلك، أصبح التواصل مرادف الحياة ووصفا للحرية. هذا أمر طيب لكن بشرط عدم خلط الكفاءة التقنية بالصعوبات الوجودية للتواصل الإنساني. لقد أصبحت التقنية أفضل حليف وألد خصم للتواصل في الوقت نفسه. ونتيجة لذلك، وجب انتقاد الأيديولوجية التقنية التي تجعل من التقنيات سببا لانبثاق مجتمع مثالي، فالحواسيب لا تخلق مجتمعا جديدا وعلى العكس من ذلك وجب البحث عن اليوتوبيات السياسية القابعة وراء التقنيات الجديدة لأن إعادة الاعتبار لهذه اليوتوبيات يمنع من أن تصبح التقنية ذاتها يوتوبيا.

إن تحديد الفرق في الطبيعة بين الإعلام والتواصل ضروري لسبب آخر. بالأمس كان الإعلام يحيل إلى الحدث والقطيعة لكن اليوم عمت الأحداث وأصبح الإعلام تدفقا مستمرا يربط به كل واحد متى شاء، وبالمقابل من ذلك، كان التواصل بالأمس عبارة عن تدفق لكن في العالم المعاصر الذي فرضت فيه الغيرية واحترام التعايش فقد أصبح مقطعيا، فهو الذي يدير الانقطاعات والتفاوض، المفهومان إذن مترابطان لكن في منظور معياري متقابل مع ذلك الذي تشكلا فيه في القرن الثامن عشر.

فلنذكر هنا بالقطائع الخمسة المهمة للمنعطف التواصلي للقرن الواحد والعشرين:

1. أصبح التواصل إشكالية أكثر تعقيدا من إشكالية الإعلام لكونه يتعلق بالعلاقة مع الآخر وترمز هذه الفجوة إلى ظهور الدور المتنامي للمتلقي الذي أصبح يصفي الرسائل ويفاوض أثناء المبادلات، إنه الدليل على أن الإعلام لا يعني التواصل. فالتواصل هو مواجهة الغيرية وهو أيضا الخروج من التقنية لإيجاد الإنسان والمجتمع والتفاوض لذلك يمكننا القول بأن الفرق بين التواصل الإنساني والتقني يكمن في صعوبة التواصل التي لا توجد في التواصل التقني، وإن كان غير ملائم للتواصل الإنساني فالفرق الأساسي بينهما هو خاصية صعوبة التواصل.

2. تتمثل المسألة المركزية للسلم والحرب في تدبير الغيرية، فالسؤال المطروح هو كيف نتعايش بسلام لما تكون الاختلافات أكثر بروزا ووجاهة من التشابهات؟ فلا أحد يتخلى عن خصوصياته وعليه فالاعتراف بقوة الغيرية هو اعتراف بالهوية الثقافية الجمعية والمحصلة أن التنوع الثقافي هو أفق التعايش. إن الانتساب إلى المرجعية الكونية هو الحاجز أمام انصهار التنوع الثقافي في الطائفية وأمام تحول السياسة إلى رفض الآخر وإلى الشعبوية، فتحقيق التوافق بين احترام التنوع الثقافي والمرجعية الكونية هو الأفق المعياري الجديد لعالم مفتوح. يحتم هذا القول المزاوجة بين منظوري الهوية والتنوع الثقافي.

3. لا وجود لتعايش سياسي وثقافي وسلمي دون إرساء أو تقوية العلمانية وهذه هي الوسيلة الوحيدة لتفادي استعادة السياسي والديني لكون العلمانية تعايشا سلميا بين الدين والسياسة. لتحقيق تعايش ثقافي محصن من الطائفية ومن عودة احتواء الدين للسياسة لا بد من توفر ثلاثة شروط؛ الهوية الثقافية والعلمانية والمرجعية الكونية. وبالعودة إلى العلمانية فهي: مفهوم ثقافي، وسياسي يسمح بمعالجة مواضيع الغيرية والتعايش الثقافي والمرجعية الكونية. وفي هذا الإطار، تمتلك أوروبا تجربة غنية ومتنوعة لم تنجح في تثمينها.

4. بعد التركيز على دور صراع المشروعيات الذي تحدثت عنه منذ سنوات طويلة ضروريا للتمييز بين طبيعة كل مع الإعلام والمعرفة والفعل. يتعلق الأمر هنا بثلاثة رؤى مختلفة للعالم ضرورية ومتكاملة وفي الغالب متناقضة وجب التأكيد على الاختلافات بينها. وإذا لم يتحقق ذلك فسيصبح الفضاء العمومي مليئا بالفوضى والرؤى المتضادة التي تتداخل وتتنافس ويفقد الفاعلون البوصلة ويهدد الفضاء العمومي بخطر التدمير. ولتفادي هذا الخطر، صار لزاما على الجميع التعايش في الفضاء العمومي المفتوح والموسع شريطة تحديد كل واحد للفرق الملازم لكل واحدة من الرؤى الثلاثة للعالم.

5. من وجهة النظر هذه، تعد أوروبا أكبر ورش للتعايش السياسي في التاريخ حيث تسعى إلى تحقيق التعاون حاليا بين 27 دولة تتحدث 26 لغة مختلفة وتضم 500 مليون نسمة تجتمع كل الأسباب لتفريقها. وهذه تجربة فريدة وإيجابية على مستوى العالم. لكن الأوروبيين هم الوحيدون الذين لا يفتخرون بهذا التاريخ الذي يصنعونه. كيف يمكن إذن تخيل العولمة دون هذا الورش العظيم المفتوح منذ خمسين سنة؟ مجرد لعبة كلاسيكية لعلاقات القوة والحرب.

إن أوروبا هي الحقيقة الوحيدة التي تجسد الإبداع في السياسية، يحصل التقدم فيها خطوة خطوة في الاقتصاد وحتى في السياسة والثقافة وبوصلتها الوحيدة في ذلك ضرورة التعايش. فأن نرى في صعوباتها وإخفاقاتها المتكررة "إرهاقا لقارة عجوز" هو مجرد فهم خاطئ وغياب رؤية عن تحديات التاريخ. ويكفي إمعان النظر في الصعوبات التي يواجهها الورش القادم – خارج أوروبا – والمتعلق بالتقريب بين الشعوب حتى يتم التأكد من سبق أوروبا.

تتجلى القطيعة الأساسية في المعارف التي يجب بناؤها للتفكير في عالم مفتوح ثابت التفاعل قليل التراتب. من أجل ذلك يتطلب الأمر مساءلة التاريخ لمعرفة ضخامة الاختلافات وحشد كل العلوم من سياسة واقتصاد وتاريخ وأنثروبولوجيا وعلوم معرفية وعلوم المهندس والبيئة والتواصل ... لفهم هذا الزوج الجديد تواصل–عولمة بطريقة عرضانية وبين تخصصية. يضاف إلى ذلك شرط استحضار التجارب التفسيرية المتمثلة في الأدب والدين، والصحافة، والفن، والجمال.

من الضروري إذن بذل مجهودات كبيرة في ميدان المعرفة لفهم أن التواصل واحد من شروط السلم والحرب غدا وألا علاقة بينه وبين التفاعلات التقنية المنتشرة في كل مكان اليوم.

خلال قرن كانت الوقائع أسرع من التحليلات لذلك أصبح من الضروري وجود تنوع كبير في المعارف والمقاربات لمعالجة كل القطائع. للأسف، هذا التنوع في المقاربات متناقض مع الحقيقة الاقتصادية التي تسير في اتجاه آخر يتجلى في العقلنة المتزايدة لصناعات المعرفة، وبهذا الخصوص توحدت المعايير على المستوى العالمي كما نرى في صناعات الثقافة والتواصل. فالتوقيع على معاهدة احترام التعدد الثقافي لسنة 2005 كان يرنو إلى دعم هذا التعدد. لكن في واقع الأمر لم يحد من تركيز صناعات الثقافة والتواصل.

وبخصوص المعارف، فلقد شهدت نفس الحركة إذ لم يتعلق الأمر إلا بمحاسن التنوع ليتم إنكارها بعد ذلك. وعليه، فتنوع التقنيات لا يسند تنوعا في المحتويات. والملاحظة نفسها بالنسبة للإعلام إذ لم يحصل قط توافر هذا الكم الهائل من الوسائل. لكن رؤى الناس للعالم ليست متسامحة بالقدر المطلوب. والظاهر أن المجتمعات لم تتخذ الوسائل الكفيلة بمعالجة مستويات كبرى وأكثر تعقيدا من قضايا البيئة وتتمثل في حياة الإنسان والثقافات والمجتمعات.

من التواصل إلى الإعلام، فالثقافة والمعرفة والعولمة لا ترادف التعدد. وهذه بعض الأمثلة من الأوراش النظرية التي يجب فتحها للتفكير في عالم مفتوح لا يكترث بالتنوع: عدم الاستمرارية بين الإعلام والتواصل ونهاية الاختلافات الفيزيائية مع البروز القوي للمسافات الثقافية. ماذا سيقع لما يرى العالم كل شيء ويعرف كل شيء؟ الجواب: انتشار العزلات التفاعلية؟ اتساع الهوة بين كفاءة

الأنظمة التقنية وصعوبة التواصل الإنساني، وجود السرعة في كل مكان مع عدم القدرة على تحمل الوقت، عدم القدرة على معالجة الغيرية في عالم صغير وشفاف، احترام التعدد الثقافي حيث رفض التعدد اللغوي وسيادة اللغة الواحدة، الطغيان الثلاثي للثقافية والتفاعلية والأمن، صعود الطائفية بداعي الحق في الاختلاف ... وهذا غيض من فيض.

يوجد هذا التعقيد المتنامي للعلاقات بين الإعلام والتواصل في ميدان قريب وأساسي لتحقيق السلم في المستقبل ويتعلق الأمر بميدان المعرفة والذي اجتاحه هو الآخر تسليع المعارف مما خلق إرباكا وإغراء في الوقت نفسه للأوساط الأكاديمية. لقد اجتاحت هذه الأوساط العقلنة والفعالية والسرعة والتنافس والتراتبية رغم كونها تحمل قيما أخرى – في الأصل – لا تمت بصلة إلى الرأسمالية المالية. وكمثال على ذلك لم تعد الجامعات العالمية تهتم إلا بالترتيب والسباق والتنافس والحرب من أجل جوائز نوبل وملازمة الأساتذة والطلبة – الآتين من مختلف مناطق العالم – لمركباتهم الجامعية الفردوسية التي أصبحت تقل فيها تدريجيا الصلافة والمعارف "غير النافعة" والتبحر في العلوم والثقافة الفنية والنقاشات الحمقاء وببساطة روح الدعابة والفكاهة، فالكل أصبح متجانسا وحكيما.

يشبه الوسط الأكاديمي عالم الاقتصاد، فالجامعات الكبرى أصبحت شبيهة بمقاولات يزينها العشب وقاعات الرياضة والنتيجة أن اختزلت المعرفة في وسيلة للسلطة والتواصل في دائرة تثير السخرية.

علاوة على ذلك، فوضع ومسؤولية النخب في الميزان، فهل يقتصر دورها على مصاحبة ظاهرة عولمة وعقلنة التواصل والإعلام والمعرفة أم لها قيم أخرى تنافح عنها خصوصا الصالح العام واحترام مشروعيات منطقية أخرى للمعرفة ورفض الترابية العالمية والإيثار ونبذ الفوضى.

حاليا، الويل كل الويل لمن يسائل وينتقد ويسخر إذ يتحول بسرعة إلى خصم للتقدم ومدافع عن الماضي... لقد تحولت نخب العالم بأسره والغالبية العظمى من الأوساط الجامعية إلى هذه المنافسة المعولمة للمعارف وخضعت بطريقة غريبة للإيديولوجيا التقنية متخلية عن كل مقاومة نقدية للوعود الكثيرة لشبكات المعرفة، وللجامعات التفاعلية، ولبنوك المعارف، والمعطيات.

والأسوأ من ذلك أن الوسط الأكاديمي قد تبنى منظور المقاولات في حين أنه من الضروري الاحتفاظ بالاختلاف في وجهات النظر في ضوء الاقتصادوية المهيمنة. في ظرف ثلاثين سنة شهدنا تبعية الوسط الأكاديمي لحقيقة اقتصادية يشوبها نقص كبير. لقد تعلمت الجامعة كيف تأخذ مسافة من الكنيسة لكنها لم تصل بعد إلى فعل نفس الشيء مع الاقتصاد.

دخل التواصل الحداثة متزامنا مع الحرية الفردية وهو اليوم محاط بالهوية والإعلام كما يعد أحد المفاهيم الأساسية المعاصرة للتفكير في بداية القرن الواحد والعشرين، إنه في مواجهة مزدوجة مع عولمة الإعلام وانتصار التعدد الثقافي وهما القطيعتان الأساسيتان اللتان تقودان إلى التواصل وتحققان السلم والحرب. إن كلمتي إعلام وتواصل لا تسائلان فقط اختيارا تقنيا معينا، بل تصورين لعالم المعرفة. يشير التصور الأول إلى عقلنة عالم المعرفة ليصبح صناعة عالمية مثل باقي الصناعات أما الثاني فيتعلق بإصلاح عالم المعرفة بتوسيعه ليشمل الأبعاد الاجتماعية والأنتروبولوجية وهكذا يوجد الإعلام والتواصل – بصرف النظر عن الرهانات التقنية والسياسة والثقافية السالفة الذكر – في قلب ثورة إبستمولوجية تعيد النظر في تعريف ووضع المعرفة في عالم مفتوح.

للأسف، لم ينطلق النقاش بعد لكنه يعني أمرين، يخص الأمر الأول العلاقة الضيقة التي ينقصها التحليل والموجودة بين ثورة الإعلام والتواصل من جهة ووضع المعرفة من جهة أخرى. للإعلام والتواصل دور مركزي في إعادة هيكلة العلوم وفي النقاشات المتعلقة بدور المعرفة في فهم العالم. أما الأمر الثاني فينص على مسؤولية الأوساط الأكاديمية والنخب في التفكير في ثورة الإعلام والتواصل، ثورة غيرت التمثل حول العالم وبالتبع تنظيمه لكونه أصبح لحظيا لأول مرة في التاريخ. وينتج عن ذلك تأثير كبير على إنتاج التمثلات

حول هذا العالم الصغير والمفتوح ليبقى السؤال المطروح: هل يجب اتباع نموذج واحد غربي لتجديد العلاقات بين العلم والتقنية والثقافة والمجتمع بمحاسنه ونقائصه وسيرورة عقلنته أم أن العولمة، التي هي فحص للعلاقات مع الآخر ومع الكونية، أفرزت إشكالية التعدد بعلاقات قوتها التي تذكر؟

بصيغة أخرى، تواجه المعرفة – كما التواصل أيضا – مسألة التعدد وضرورة التفكير في العلاقات بين التعدد والكونية. وفي الحالتين معا فالسؤال موجه إلى العلاقة مع الآخر أو إلى درجة أخذ الغيرية بعين الاعتبار ومنه مختلف أشكال التعايش إن على مستوى التواصل أو على صعيد المعرفة.

يقتضي إعادة الاعتبار للتعايش – الذي يوجد في قلب النموذج الديمقراطي– التفكير في أساليب الخروج من النظرة الاقتصادية المحضة والمعقلنة للمجتمع. فتثمين إشكالية التعايش يعني الخروج من الإيديولوجيا الاقتصادوية السائدة والتذكير بأن للمجتمعات طموحات أخرى كتعلم العيش المشترك رغم وجود الاختلافات بين بعضها البعض. يمكن أن يصبح البحث عن التعايش – كأفق جديد للعولمة – يوتوبيا كما يمكن أن توجد في هذا التصور السياسي للتواصل – الذي يعلي من شأن التفاوض والتعايش – قيمة إضافية.

ما هو الرهان السياسي للتواصل إذن؟ خلق تعايش سلمي بين المتشابه والمختلف في المجتمعات المفتوحة التي لا يعد فيها الاقتصاد الأفق الوحيد للإنسان. هل هو رهان مثالي؟ بكل تأكيد ونعم الأمر كذلك حيث تخلق العولمة الثالثة حاجة إلى اليوتوبيا حتى لا يتحول الإعلام والتواصل من التقريب بين وجهات النظر إلى تهديد التوازنات الهشة للسلم والحرب في بداية هذا القرن.

الهوامش:

[1] -Dominique WOLTON, La communication, les hommes et la politique, Biblis éditions, Paris, 2015, pp. 673-685.

[2] – دومينيك وولتون ولد عام 1947 في الكاميرون، وهو من أصول فرنسية.